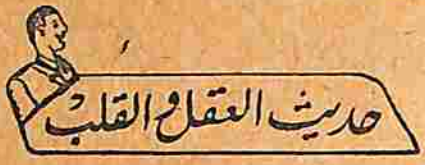

حديث العقل والقلب

تذوق وتحقق

بقلم
الدكتور: محمد مصطفى حلمى
أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب بجامعة القاهرة

جلس الشيخ المرشد بين يدى مكتبه ، مغرقاً فى مطالعة كتبه . ممعناً فيما هو بسبيله من أفكار ملكت عليه عقله ، وأسرار امتلأ بها قلبه . وبينا هو كذلك إذ أقبل عليه مريده المسترشد ، فسلم عليه ، وجلس بين يديه ، ولم يكد يستقر به المجلس حتى ابتدره الشيخ بقوله :

لعلك تحس معى أن الأمد قد طال على حديث العقل ، وأن الصلة بيننا وبين هذا الحديث قد انقطعت منذ طلع علينا هلال رمضان بإشراقاته الروحانية وأفاض على قلوبنا من نفحاته النورانية ، فإذا نحن ننصرف عن حديث العقل إلى أحاديث أخرى لعلها كانت ألذ وأمتع ، وأجل وأروع ، ذلك بأنها أحاديث القلوب إلى القلوب طوال شهر تصفو فيه القلوب ، فإذا هى أقرب ما تكون إلى علام الغيوب ، وأبعد ما تكون عن عالم حمى أو عقلى أفسدته الخطوب والكروب ، وإذا حياتنا فى ذلك الشهر المعظم حياة روحية خالصة وجدنا فيها رددنا خلالها من تسبيحات ، وما تلقينا فى أيامها ولياليها من نفحات ، جلاء البصائر ، وصفاء الضمائر ، ونقاء السرائر ، فلم يكن بد من أن نخلو إلى قلوبنا ، وأن نخلى بين قلوبنا وبين هذه الحياة الروحية الخالصة التى ليس من شك فى أنا واجدون فيها نجوى النفوس الزكية ، وسلوى الضمائر الصفية ، وقوت القلوب النقية .

وها نحن أولاء يا بنى قد تزودنا من شهر الهدى والفرقان بخير الزاد ،

وعرفنا فيه كثيراً مما ينفع فى المعاش والمعاد ، واتخذنا منه معيناً نستعين به ومعيناً ننهل منه ، فلا بأس علينا إذا عدنا اليوم إلى حديث العقل الذى لعلك تذكر أننا وقفنا فيه عند إظهار الصلة بين النفس والعقل ، والإبانة عن منزلة العقل من النفس ، واتفقنا على أن نلتقى فى حديثنا المقبل على تعرف ماهية العقل وحقيقته ، حتى يتبين لك وجه الحق فى هذه الحقيقة ، ويتبين لك معه كيف تستطيع أن تحقق ما أردتك على تحقيقه حين قلت لك : « كن عقلا واعياً ... »

على هذا النحو وجه الشيخ المرشد حديثه إلى مريده المسترشد ، وكان هذا المريد من الصمت والسكون والإنصات إلى شيخه وهو يتحدث إليه بحيث لم يتحرك حركة ، ولم يلفظ لفظة ، بل كان مأخوذاً كأن على رأسه الطير ، مستغرقاً مع أستاذه فى حديث التسبيحات والنفحات كأنه قد أصاب فى هذا الحديث عزاء نفسه وغذاء قلبه ووجد عنده راحة روحه وملاذ ضميره ، فإذا هو يسكن إليه ، ويأنس له ، ويطمئن به . ولم يكد يفرغ شيخه من خطابه إليه على هذا الوجه الذى ملك عليه كل قلبه حتى جعل يتمتم فيما بين شفتيه بكلمات كانت فى أول الأمر خافتة خافية لا تكاد تبين فى ذاتها ، ولا تكاد تبين عن شىء مما يدور فى نفس صاحبها ، ولكنها ما لبثت أن بانت شيئاً فشيئاً ، وأن اتضحت رويداً رويداً ، وذلك عند ما أخذ المريد يرفع صوته قليلا قليلا ثم أخذ يقول :

لست أدرى يا سيدى على أى وجه أتحدث إليك ، ولا بأى من الألفاظ والعبارات أحمد لك . ومهما يكن من شىء فلقد والله حدثتنى حديث القلب إلى القلب عن القلب ، وأثرت فى نفسى ذكريات تلك الأيام التى طويناها صائمين صابرين ، وتلك الليالى التى أحييناها قائمين شاكرين ، فإذا أنت تطوينى فى نفحات ، وتحيينى فى تسبيحات ، وتردنى إلى أصفى الموارد وأحلاها ، وأشفى المناهل وأشهاها ، وإذا أنا أتمثل بين يديك الآن حياتى الروحية تلك التى كنت أحياها فى رمضان مع ربى ، ومن أجل ربى ، ولا أبتغى بها غير وجه ربى ، فهو وحده الذى امتلأ به قلبى ، ووقفت عليه وحده حبى ، ولم أكن فى ذلك مسرفاً أو متطرفاً ، ولا مبغضاً للحياة الدنيا ، ولا منصرفاً عما ينبغى

على من حفظ الحقوق وأداء الواجبات نحو الخلق بقدر أداء هذه الواجبات وحفظ تلك الحقوق نحو الحق ، ذلك بأنى إنما أحببت الله وأحببت كل شيء فيه وبه : أحببت الحق وتحققته لأنى أحب الله الذى هو الحق الأعلى ، وأحببت الخير وحققته لأن الله هو الخير الأسمى ، وأحببت الجمال وتذوقته لأن الله هو الجمال الأسنى . فإذا قلت إن الله وحده هو الذى امتلأ به قلبى ، وإنه هو وحده الذى وقفت عليه حبى فإنما أعنى أن من يحب الله فقد أحب كل شيء فى ثنايا حبه لله .

وهكذا ترى يا سيدى إلى أين نقلنى حديثك العذب ، وعلى أى وجه أثار فى قلبى مكنون الضنى ومكتوم الشجن ، كما ترى أنه ليس أشهى للقلب من حديث القلب ، ولا أدعى لبهجته وسعادته وراحته من نفحات الحب . وإذا كان ذلك كذلك فإذا علينا إذن لو أقبلنا اليوم بكل ما فينا من قلب على حديث القلب فاسترسلنا فيه ، وأعرضنا عن حديث العقل فأمسكنا عنه

وهنا ابتسم الشيخ المرشد ابتسامة عبر بها تعبيراً مزدوجاً عما كان لكلام مريده من أثر فى نفسه : فهى ابتسامة تعبر عن الرضى والإعجاب من ناحية ، وعن اللوم والعتاب من ناحية أخرى ويتبين هذان المعنيان فيما وجهه الشيخ إلى مريده من قوله له :

لقد أخذك يا بنى ما فى حديث القلب من روعة ، وماله فى القلب من سحر ومتعة ، وأردت أن تطلق قلبك على سجيته مع هذا الحديث الرائع الساحر الممتع ، وأنا لا ألومك على هذا ولا أعتب عليك فيه ، بل أوافقك على كل ما أظهرته من ذات قلبك ، وما كشفت به عن حقيقة حبك . ولكن ألا ترى معى أننا يوم اتفقنا على أن ندير هذا الحديث بيننا قد اتفقنا أيضاً على أن يكون موضوعه العقل والقلب معاً ، لا العقل وحده ، ولا القلب وحده ؟ ثم ألا ترى معى أيضاً أننا قد جعلنا من أجل هذا عنوان حديثنا : « حديث العقل والقلب » ، وأنه من هذه الناحية يجب ألا نسرف فى أحد الطرفين على حساب الآخر ، وألا نتحيف من حق أحدهما إشباعا أو تشبيعاً لحق الآخر؟ ثم ألا ترى بعد هذا كله أنى يوم توليت أمرك وتدبيرك قد قلت لك : « كن عقلا واعياً ، وكن قلباً صافياً ، وكن ضميراً صاحياً » ، ثم قل بعد ذلك ما شئت لمن شئت ، وافعل ما شئت

مع من شئت ، فلن يكون قولك الا صدقاً ، ولن يكون فعلك الا حقاً ، فأنت ترى يا بنى أنى لم أرد أن أجعل منك قلباً فحسب ، وانما أردت ولا زلت أريد وأريدك على أن تكون عقلا وقلباً وضميراً . فاذا كنت عند هذا كله . وتحققت فى حياتك النظرية والعملية والروحية بهذا كله ، واستطعت أن تلائم فى أقوالك وأحوالك وأفعالك بين هذا كله ، كنت من غير شك من السائرين على الصراط المستقيم ، ومن الظافرين بالفوز العظيم . وهذا يعنى يا بنى أن سبيلك الى المعرفة اليقينية والسعادة الحقيقية ، انما هو التحقق بكمال العلم وكمال العمل ، وأن سبيل التحقق بهذين الكمالين انما يتهيأ لمن يخضع حياته الحسية والنفسية لرياضة روحية يأخذ جوارحه فيها بالتصفية ، وجوانحه بالتنقية ، بحيث يضفى على هذه الجوانح وتلك الجوارح أنواراً من عقله وقلبه وضميره ، وبحيث تجتمع هذه القوى والملكات على وجه تأتلف فيه وتتحد معه ، فلا يفترق بعضها من بعض ، ولا يتخلف بعضها عن بعض ، ولا يظهر بعضها على بعض ، لأنها جميعاً قد خضعت لرياضة روحية واحدة ، وجعلت لها غاية روحية واحدة ، وأصبحت حياة صاحبها على هذا الوجه حياة روحية واحدة أخص خصائصها الجمع الذى ينفى التفرقة ، والوحدة التى تنفى الكثرة : فالحس والنفس والروح والعقل والقلب والضمير ، كل أولئك انما يتحد فيك ، ويأتلف لديك ، وذلك عند ما تكون قد وصلت من رياضة نفسك ، ومجاهدة حسك ، الى الحد من سلطان القوى والملكات الدنيا ، والبسط فى سلطان القوى والملكات العليا ، وهنا لا يصبح لك خبر من حسك أو نفسك ، بل ولا يصبح لك خبر من عقلك وقلبك ، تحس وتشعر ، وتروى وتفكر ، وتقدر وتدبر ، وتقبل وتدبر ، الى غير ذلك مما تفعله أو تنفعل به ، ولكنك لا تكاد تدرى بأى من قواك وملكاتك ، ولا بأى من جوارحك وجوانحك تفعل هذا الذى تفعل ، وتنفعل بهذا الذى به تنفعل ، ذلك بأنك قد أصبحت بعد الرياضة والمجاهدة غير ما كنته قبلها ، وانتهيت من هذه الرياضة والمجاهدة الى هذه الحال التى تعرف عند الصوفية باسم الحال الموحدة ، وهى حال فيها شعور ذوقى

روحى واحد تعانقت فيه الأضداد ، والتقت عنده قوى حياتنا الروحية كلها بعد أن صفت وسمت ، فإذا نحن لا نصدر إلا عنه ، ولا نشعر إلا به ،

على أن المريد ، وقد أخذه كلام شيخه مرة أخرى ولكن أخذه هذه المرة بعمقه ودقته ، بقدر ما أخذه منذ حين بسحره ورقته ، لم يخف على أستاذه ما أحس فى بعض هذا الكلام من غموض وإبهام ، وما عسى أن يكون فيه من عسر وإغراب قد يحلانه عن بعض الأفهام ، فإذا هو يسائل أستاذه فيقول :

ألا ترى يا سيدى أن وحدة الحياة الروحية على هذا الوجه الذى وصفت ، ليست من الوضوح والجلاء بحيث يفهمها كل إنسان ؟ وألا ترى أيضاً أنك لو ضربت لى ولو مثلا واحداً على تذوق وتحقق وحدة الحياة الروحية على الوجه الذى عرضت لكان ذلك أقوم قيلا وأهدى سبيلا ؟

وهنا أجاب الشيخ مريده فى حزم فقال :

ومن قال لك يا بنى أن هذا كلام يقال لكل الناس ، وأن وحدة الحياة الروحية فى الإنسان أمر يستطيع أن يتذوقه ويحققه كل إنسان ؟ ومن قال لك أيضاً أنى سأقف بك عند هذا الحد من الكلام ، ثم أتركك فى بحر من الغموض والإبهام ، تتقاذفك أمواج الشكوك والأوهام ، دون أن أضرب لك الأمثال ؟

ولعلنى حين أضرب لك الأمثال فلن أخرج عن ذات نفسك كثيراً أو قليلا ، فمن عجب أنك تزعم أن فى كلامى غموضاً وإبهاماً ، وأنت مع ذلك أكثر ما تكون استعداداً لتذوق معنى الوحدة الروحية للحياة الإنسانية وتحققها : فلعلك تذكر أو لا تذكر لست أدرى ، وأكبر الظن أنك ستذكر أنك قلت منذ هنيهة إنك أحببت الحق وتحققته لأنك تحب الله الذى هو الحق الأعلى ، وإنك أحببت الخير وحققته لأنك تحب الله الذى هو الخير الأسمى ، وإنك أحببت الجمال وتذوقته لأنك تحب الله الذى هو الجمال الأسنى ، إلى آخر ما قلته فى هذا المعنى الذى إذا كان يثبت شيئاً فى نفسك ، فإنما يثبت قدرتك على النظر إلى الحقائق العليا ، وإلى أعلى هذه الحقائق بصفة خاصة ، بعين الوحدة .

وحسبى أن أضيف إلى ما قلت أنت فى هذا المعنى كلاما لعله أن يزيل من نفسك ماحسبته غمرضا أو إبهاما، فأقول لك :

أحبب الحق والخير والجمال مطلقا فى ذات الله ، ومعينا متجليا فى آيات صنع الله ، وأعرف حقائق هذا كله ودقائقه ورقائقه معرفة حقيقية يقينية لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها . ولكى تكون معرفتك كذلك ، وتكون محبتك بمنجاة من المزالق والمهالك ، فأحبب واعرف لا ببعضك ولكن بكلك ، لا بقلبك وحده ولا بعقلك وحده ، ولكن بقلبك وعقلك ، ولا بحسك وحده ، أو بنفسك وحدها ، ولكن بحسك ونفسك . وبعبارة أخرى لعلها أدل على ما أريد وأجمع له ، وأقرب إلى المعنى الذى أشرت إليه وعبرت عنه ، أقول لك : أحبب الله بكل ما فيك من قلب ، وأعرف الله بكل ما فيك من عقل ، وأتق الله بكل ما فيك من ضمير ، وأحس آيات صنع الله فى كل ما أبدع من مجالى ذاته العلية ، بكل مالك من حس ونفس ، وليكن كلك حسا ونفسا وقلبا وعقلا وضميرا ، وليكن لك من وراء هذا كله روح صافية نقية ، تستطيع أن ترقى بك عن حضيض المظاهر السفلية إلى أفق المبادىء العلوية .

فإذا أردت يا بنى بعد هذا الذى قدمت إليك أن تتذوق المعانى الروحية السامية ، وأن تتحقق بمعرفة المبادىء الإلهية العالية ، فحسبك أن يكون مثلك فى هذا التحقق وذلك التذوق كمثل سلطان العاشقين شرف الدين عمر بن الفارض ، الذى لم تكن حياته الروحية ومحبته الإلهية إلا تعبيرا صادقا عنه ، وتصويرا مشرقا له . وحسبك أيضاً أن تقرأ من تائيته الكبرى أبياته التى تعد بحق مرآة صافية صادقة تتجلى على صفحتها أذواق صاحبها بكل ما تنطوى عليه من معانى الوحدة الروحية ، واتحاد القوى والملكات النفسية . وها هو ذا ابن الفارض يعبر عن هذه المعانى متحدثا بلسان الحال التى انتهى إليها ، وأصبح يدرك محبوبته الحقيقية عليها ، فإذا هو يشدو فيقول :

إذا لاح معنى الحسن فى أى صورة
وناح معنى الحزن فى أى سورة ٤١٠
يشاهدها فكرى بطرف تخيلى
ويسمعها ذكرى بسمع فطنتى
ويحضرها للنفس وهمى تصورا
فيحسبها فى الحس فهمى نديمتى
فأعجب من سكرى بغير مدامة
وأطرب فى سرى ومنى طربتى
فيرقص قلبى وارتعاش مفاصلى
يصفق كالشادى وروحى قينتى ٤١٤

إلى أن يقول :

فلفظ وكلى بى لسان محدث
ولحظ وكلى فى عين لعبرتى ٥٤٦
وسمع وكلى بالندى أسمع الندا
وكلى فى رد الردى يد قوة
معانى صفات ماورا اللبس أثبتت
وأسماء ذات ماروى الحس بثت ٥٤٨

وإن ابن الفارض ليمعن فى تذوقه وحدة حياته الروحية ، ويفتن فى تحققه بأرقى وأسمى أحوال المحبة الإلهية، حيث يتصل بمحبوبته الحقيقية، ويشهد ذاتها العلية ، ثم يريد أن يعبر عن هذا كله فى ألفاظ وعبارات ، تبدو فى ظاهرها كذلك ولكنها فى حقيقتها دقائق وإشارات ، فإذا هو يشدد مرة أخرى فيقول :

وكلى لسان ناظر مسمع يد
لنطق وإدراك وسمع وبطشة ٥٧٩
فعينى ناجت واللسان مشاهد
وينطق منى السمع واليد أصغت
وسمعى عين تجتلى كل ما بدا
وعينى سمع إن شدا القوم تنصت
ومنى عن إيد لسانى يد كما
يدى لى لسان فى خطابى وخطبتى
كذاك يدى عين ترى كل ما بدا
وعينى يد مبسوطة عند بسطتى
وسمعى لسان فى مخاطبتى كذا
لسانى فى إصغائه سمع منصت
وللشم أحكام اطراد القياس فى
اتحاد صفاتى أو بعكس القضية
وما فى عضو خص من دون غيره
بتعيين وصف مثل عين البصيرة
ومنى على أفرادها كل ذرة
جوامع أفعال الجوارح أحصت
يناجى ويصغى عن شهود مصرف
بجموعه فى الحال عن يد قدرة ٥٨٨

قرأ الشيخ المرشد هذه الأبيات فى صوته العذب الصافى ، ولم يكد يفرغ من قراءتها حتى قال له المريد المسترشد :

ما أروع وأمتع هذه الأبيات ، وما أدق وأرق هذه الإشارات ، لكم قرأتها ووقفت عندها قبل اليوم ، ولكنى ما فطنت إلى ما تنطوى عليه من معانى الوحدة الروحية إلا الآن ، ومع ذلك فأنا مازلت أحس يا سيدى أنها ما زالت فى حاجة إلى كشف عنها وتجلية لها ، فهلا وقفنا عندها وقفة تكشف عن معانيها ، وتجلى أغراضها ومراميها ؟

قال الشيخ المرشد :

لك ماتريد من هذه الوقفة ، ولكن بعد أن نعود فى حديثنا المقبل إلى ما كنا بسبيله من الإبانة عن العقل وحقيقته ، فبقد أبعدنا ، وشغلنا حديث الذوق ورقته عن حديث العقل ودقته .

محمد مصطفى حلمى

كلمات صوفية

للإمام الجنيد

- التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى .
- عزيز النفس من لزم القناعة ، ولم يكشف لمخلوق قناعه .
- ما رأيت أحداً أعظم الدنيا فقرت عيناه بها .
- مبنى التصوف على أخلاق ثمانية من الأنبياء عليهم السلام ، السخاء وهو لإبراهيم ، والرضا وهو لإسحاق ، والصبر وهو لأيوب ، والإشارة وهى لزكريا ، والغربة وهى ليحيى ، ولبس الصوف وهو لموسى ، والسياحة وهى لعيسى ، والشجاعة وهى لمحمد صلى الله عليه وسلم.